تريد أن تَمْنع الكاتبَ أم تُعْدمه؟

عادل محمود

نَشَرتُ مجموعةَ قصصٍ واحدة عام ١٩٧٩ بعنوان **القبائل**، عن دار ابن رشد في بيروت. وهي المجموعة الوحيدة بين خمس مجموعات شعريّة، ولم أكتبْ بعدها أبدًا في القصة.

في إحدى القصص «اختفاء حميد الديب» يَذْهب هذا الرجلُ ولا يعود، ويسأل أهلُه وأصدقاؤه عنه فلا يَعْثرون له على أثر. يتولّى صحفيّ فضوليّ البحثَ عنه، فيَكْتشف شخصيّةً مُلئت أيّامُها بتجارب كبيرة ومُحْبِطة، ويَعْلم أنّ حميد الديب هو اسمٌ على مسمّى آخر... إذ يَكْتشف الصحفيّ شخصيّةً أخرى، من جيل آخر، هو جيل حرب فلسطين.

في شهادة أحد زملاء حميد الديب القديم (لا الذي نَبْحث عنه) ما يلي: «... إنْ كنتَ تَبْحث عن حميد فقد التقيتُ بمن يَعْرفه حقّاً. فقد رأيتُه كثيرًا، وعشتُ معه طويلاً. أَعْرفه من أيام الدُّعاة وحتى آخر يومٍ صَرَخَ فيه قتيلاً.»

ثم يَسْتطرد الراوي في الحديث عن اليهود والظروف المحليّة الظالمة في البلاد، وعن الكفاءات البدنيّة والنفسيّة للشخصيّة. ورغم إدراك الصحفيّ أنّ حميدًا هذا هو شخصٌ آخر، فإنّه يتابع الشهادة:

«... المهمّ، حميد لم يتأخّر عن النداء الذي وجّهتْه البلادُ المنكوبةُ إلى الناس [المقصود فلسطين ١٩٤٨]. فذهب، في مَنْ ذهب، إلى حرب فلسطين. كنّا معًا في الفوج العَلَويّ بقيادة غسان جديد. فقد رَحَلْنا إلى هناك أفواجًا أفواجًا: الفوج الحمويّ والشركسيّ والأدلبيّ [تشكيلة جيش الإنقاذ السوريّ]...»

ويتابع الشاهد:

«... يا بنيّ. العرب خائنون. وعربُ ذاك الزمان لا يَفْهمون أيضًا، وأنا أيضًا لا أَفْهم، كيف تَعْترف أميركا بدولة إسرائيل بعد اثنتيْ عشرةَ دقيقةً فقط من إعلان بن غوريون عن قيام الدولة، ثم يقول الملوكُ العربُ: 'نحن لا نريد الخلطَ بين السياسة والنفط، وسنُحافظ على تعهدنا بحماية التاپلاين والأميركان والامتيازات التي منحناهم إيّاها... لن نضحّي بذلك من أجل قريةٍ اسمُها فلسطين.' حميد كان يقول لي ونحن في وعر صفد: 'سنموت برخص. المكتوب مُعَنْوَن سلفًا. وهذه الجيوش والأسلحة وخطط الحرب لا تساوي شيئًا.' ومات حميد في معركة دجانيا.. وهو بلا قبر. وأقول دائمًا: يا حميد، الأفضل أنّك لم تعد بيننا اليوم...»

◆ ◆ ◆

قُدِّمت المجموعةُ القصصيّةُ إلى وزارة الإعلام للرقابة. وبعد أكثر من شهر كَتَبَ الوزير الأسبق على حاشية الرقيب: «تُمنع من التداول والدخول إلى سورية لأنّها تُثير النعرات الطائفيّة وتشكّك في حرب تشرين التحريريّة.» (هناك في الكتاب قصّة أخرى عن الحروب العربيّة استَدْعَتْ ذِكْرَ حرب تشرين).

وعندما رأى الحاشيةَ معاونُ الوزير قال له: «سيادة الوزير، هل تريد أن تَمْنع الكِتابَ أم تُعدم الكاتب؟!»

◆ ◆ ◆

الرقابةُ ومنسوبُ الرقابة لهما علاقةٌ بفكرة الدولة عن المواطن. فهو أحد «رعاياها،» ونسبةُ القرابة بينهما صفر لأنّه لا يختارها ولا تمثّله. من هنا تأتي الرقابةُ كتفصيل في سياق الحريّة، التي لم يَذُقْها عربيٌّ حتى هذه اللّحظة من المحيط إلى الخليج... إلاّ في «التعريف الإنشائيّ والحقوقيّ،» أي الكتابة ـ وهي الممنوعة والمراقَبة.

إنّ الرقابة سلطةٌ على الكلام، تَحْمل الأقلامَ الحمراءَ والبلطةَ أيضًا. لا داعي للقول إنّ الحريّة تحت طائلة المسؤوليّة القانونيّة أصبحتْ من البدهيّات في الدول والمجتمعات. وزادت ثورةُ المعلومات وبيئاتُ الاتّصال الحديثة من ورطة الرقابة المتخلّفة والرقيبِ المتعصّبِ. ثمّة مشكلةٌ لا حلّ لها بالنسبة إلى الكِتاب الذي يَقَعُ، غصبًا عنه، بين أنياب الرقيب الحمراء. فلو تركناه من دون رقابة مسبّقة، فإنّنا سنَدَعه بين يديْ قاضٍ أقسى وأقلّ عدالةً في الحكم على درجة الإساءة إلى شيء ما... أو الخروج عن المسموح به في قانون رقابةٍ ما بعد النشر.

أَعْتقد أنّ زمنًا طويلاً سوف يمضي قبل أن يزول الرقيب. ولكنّه سيزول تمامًا، لوجود الشَّبَه بينه وبين «العَذُول» و«الواشي» في أزمنة الحبّ العذريّ البدويّة القديمة.

دمشق

مُنعت مجموعتي من التداول لأنّها «تثير النعرات الطائفيّة وتشكّك في حرب تشرين»

عادل محمود

قاصّ وشاعر سوريّ. عمل بين ١٩٨٩ و١٩٩٤ مديرًا لتحرير مجلة **لوتس** الصادرة عن اتّحاد كتّاب آسيا وأفريقيا. يُعتبر من روّاد الجيل الثاني في القصيدة الحديثة السوريّة التي عُرفتْ بالقصيدة اليوميّة أو قصيدة «مقاربة جماليّات نثر الحياة اليوميّة.» من أبرز أعماله الشعريّة: **قمصان زرقاء للجثث الفاخرة**، **وضفّتاه من حجر**، و**مسوَّدات عن العالم**.